عفيف فرّاج
مفكراً نقدياً وباحثاً اجتماعياً بمضمون ديمقراطي يساري

لا أعرف الكثير عن سيرة عفيف فراج الشخصية، ولا عن سيرته الجامعية. لكني أعرفه جيداً من خلال كتبه وكتاباته، ومن خلال لقاءاتي التي تعددت المناسبات الثقافية التي جمعتنا فيها. لكن الأهم بالمطلق الذي جعل عفيف يقيم في الذاكرة وفي الوجدان بعد رحيله هو ما خلفه لنا من تراث غني في العديد من مؤلفاته. وتحتل هذه الكتب في مكتبتي مكاناً مميزاً. أكتفي هنا بالتذكير بكتاب تحت عنوان "إشكاليات النهضة بين الليبرالية الإغترابية والإسلامية الإجتهادية". تحتشد أبحاث عفيف في هذا الكتاب بعرض مسهب عن رفاعة الطهطاوي، كما فعل سواه من قبل. وتوقف في فصل آخر عند الإمام محمد عبده والجانب الإصلاحي في فكره مستكملاً بحثه بوقفة عند الحوار الممتع الذي جرى بين الإمام محمد عبده والمفكر الاشتراكي اللبناني فرح أنطون أحد رموز النهضة في مصر، إلى جانب شبلي الشميّل ونقولا الحداد ورفيق جبور من المفكرين اللبنانيين. ويقف في أحد فصول الكتاب عند تجربة طه حسين التنويرية وعند مصلحين آخرين من أعلام الفكر التجديدي في المسيحية وفي الإسلام.

توقفت عند هذا الكتاب لأنني وجدت فيه ما يعبّر عن عفيف فراج كمفكر واسع المعرفة وكصاحب فكر تنويري، وصاحب رؤيا تجديدية في الفكر كأساس في عملية التغيير التي ننشدها في بلداننا باسم العقلانية والتقدم والديمقراطية التي لا يمكن أن تتحقق إلا عندما يصبح التجديد في الفكر، والتجديد في الدين رافعة في عملية البحث عن المستقبل المنشود لبلداننا.

وأذكر من كتب عفيف المهمة كتابه الذي قرأ فيه سيرة القائد الشهيد كمال جنبلاط مفكراً إصلاحياً تنويرياً.

وكان من أهم ما تميزت لقاءاتنا، وكان معظمها في مقهى "الجندول" في كورنيش المزرعة، ذلك النقاش الذي حرصنا كلانا أن نتوقف فيه عند ما يتجاوز السياسة اليومية إلى ما هو همنا المشترك في البحث عن السبل التي تهيئ الشروط لولادة حركة نهضوية جديدة في بلداننا العربية، وفي بلدنا لبنان على وجه التحديد تخرجها مما هي فيه أسيرة صراعات طائفية بغيضة، وتحررها من التدخلات الخارجية من كل الجهات والاتجاهات.

لم يكن عفيف شيوعياً بمعنى الانتساب إلى الحزب الشيوعي لكنه كان يساري الاتجاه الذي يعبّر في جوهره عما ارتبط باسم ماركس وباسم الاشتراكية من قيم إنسانية.

وأنشر فيما يلي نصاً لعفيف من كتابه "ثنائية شرق–غرب" تحت عنوان "صدام همجيّات لا صدام حضارات–شبح ماركس ما زال يطوف":

"في كتابه "نهاية التاريخ أو الإنسان الأخير" كتب فوكوياما نبوءته بأنّ سقوط الشيوعية يُعلن النصر النهائيّ للديمقراطية ويجعل من الفرد البورجوازيّ أو "الإنسان الرغائبيّ" الإنسان الأخير. لم يتنبّه فوكوياما إلى أنّه يكتب، بالمقلوب، الحتميّة الماركسية التي سيّرت التاريخ في خط ينتهي انتصار الشيوعية.

وقد رفد خبراء مختصّون بالملف الإسلامي رؤية فوكوياما، أبرزهم الفرنسيّ جيل كيبيل الذي تحدّث عن حتميّة "دخول العالم الإسلامي في الحداثة، وأنصار المسلمين في الديمقراطيّة ونَسَبَ الفضل في هذا التحوُّل المرتقب إلى ثورة الاتصالات والمعلوماتية التي ستُدْخِل فضائل الديمقراطية في وعي الأُمم الإسلامية". كأنَّ جهل المسلمين بالديمقراطية هو ما يعطّل وصولها إلى عالمهم، وكأنَّ أخبار "ثورة الفرنسيس"، ناهيك عن جيوشهم، لم تدخل في بلاد الشرق بعد.

أشهر قليلة مضت على حدث ١١ سبتمبر وإذْ بوعي فوكوياما يستيقظ على الترجمة العسكرية الفعليّة لما وصفه بوش بـ"الحرب الصليبيّة" على الإرهاب مرتكباً زلّة لسان فرويديّة هي الأكثر نموذجيّة في تعبيرها غير المقصود عن المكبوت. وإذْ أيقن فوكوياما أنّ حقبة ما بعد الحرب الباردة تبدأ بحرب ساخنة ضد "الفاشيين والنازيين والتوتاليريين" الجدد، (كما وصف بوش الإسلاميين) ضمَّ صوته إلى صوت رئيسه وتحدَّث عن "عالم إسلامي يسبح فيه الإرهابيون تحدّياً إيديولوجياً أكثر جذرية من التحدّي الذي كانت تمثّله الشيوعية". ولم يبقَ على صاحب كتاب "نهاية التاريخ" إلاّ الاعتراف بأنّه "ليس هناك حتمية في التقدم التاريخي"، وهو اعتراف كاتب ينحر كتابه ويمارس ما وصفه جيلبير الأشقر في كتابه "صدام الهمجيّات" بـ"الإنجاز الفكريّ".

والحقيقة هي أنّ ما رآه فوكوياما – بعد أن صار "بصره حديد" – هو جانب من المشهد العالميّ الذي يبدو، من الخارج على الأقل، مطابقاً للصدام بين الحضارات كما وصفها هنتنغتون.

ويُسقِط جيلبير الأشقر من يده كتاب فوكاياما الهيغليّ المثاليّ ويمسك كتاب هنتنغتون بقوّة، كونه "عمل توثيقيّ ضخم يتضمّن رؤية تعدُّدية ونسبوية للحضارات كما يتضمّن نقداً للأنانية التمركزية الغربية وتفكيكاً لخطابها". والجزء الأخير من الثناء يبدو غير مستَحَقّ إذا أدركنا أنَّ هنتنغتون يقسّم المشهد الحضاري العالمي الكبير إلى اثنين: "الغرب والسوى" (The West and

(the Rest ولا يرى في المشهد العالمي المصغَّر (Microlosm إلاّ مسلمون يصادمون غير المسلمين.. ذلك أنّ عجز المسلمين عن قبول الآخر يجعل "حدود الإسلام من دمّ".

وانحياز هنتنغتون للغرب الثقافيّ الذي "أنتج كل الأنساق الفكريّة والعقائدية العلمانيّة" ضد الشرق الذي "أنتج كل الأديان" هو انحياز مطلق، لا نسبيّ.

إلى هذه الثنائيات يضيف هنتنغتون دعوته أميركا إلى التوقُّف عن محاولة خلق العالم ديمقراطياً على صورتها، وإلى قبول التعدُّد والاختلاف بين الحضارات خارج أميركا، ومحاربة التعدديّة الثقافية داخل أميركا، لأنَّ أميركا المتعدّدة الثقافات ستكون "الأُمم المتحدة لا الولايات المتحدة".

والتجليّات الفعلية المطابقة لهذه النظريّة وأبرزها من تفكيك الاتحادين السوفياتي – واليوغوسلافي تجعل من كتاب هنتنغتون البيان الرأسمالي لعصر العولمة، وأبرز سماته اللّبننة، أو البلقنة على قاعدة اللّبننة. ولا ننسى أنَّ هنتنغتون اتخذ من الحرب اللبنانية مثالاً تطبيقياً يثبت أنّ الدين هو أهمّ وأعمق الفوارق بين الشعوب والجماعات، وأنّ كل القواسم الوطنية المشتركة لا تصمد أمام هذا الفارق. يضاف إلى خطورة كتاب هنتنغتون تضخيمه لخطر الإسلام السياسيّ، ليس على استقرار أنظمة الحكم الإسلاميّة والعربيّة وحسب، وإنّما على سلام العالم أجمع. فالحرب العاليّة الثالثة ستبدأ، إذا ما قُدِّر لها أن تبدأ، بحرب بين دولة (أو دول) إسلامية وجيرانها، وهي فرضيّة تسوّغ الحرب الاستباقية ضد الدولة (الإسلامية) التي لا بدّ أن تكون في موقع المعتدي.

إنَّ ما يميّز كتاب هنتنغتون ليس منهجيّته العلميّة أو أبعاده الفلسفيّة بل خطورته السياسية المتبدّية في الجدل الذي ينعقد بين نصّه والواقع، بين الديني – الثقافي من جهة والسياسي – العسكري من جهة ثانية. وهذا التشابه، الخارجي على الأقل، بين نظريته وتجلّياتها على المسرح العالمي تؤكّد قرب الرجل من مراكز القرار السياسيّ وأنّه مثقّف نظامه العضويّ. إنَّه يكتب من منطلق الإيمان بتفوُّق الثقافة الغربية وأهليّة أميركا لأن تكون في موقع المركز الذي تلتفّ حوله دول الغرب الأوروبيّ. وهو يصطفّ مع فوكوياما والمثقفين الذين وقّعوا وثيقة شباط ٢٠٠٢ دعماً للحرب التي أعلنها بوش وإدارته على الإرهاب العالميّ. وهو مصدّق للخطاب الذي فسَّر فيه بوش عداء الإرهابيين الإسلاميين لأميركا بأنّه عداء لديمقراطيتها وإيماناتها "تجربة العبادة والتعبير والتصويت والاجتماع". وإذا كان خطاب بوش ينقل الصراع مع الإسلاميين من مداره السياسيّ – الاقتصاديّ الحقيقيّ إلى مدارٍ دينيّ – ثقافيّ مزيّف ومستوهم، فإنّ كتاب

هنتنغتون هو النظرية المتكاملة أو الإيديولوجيا السياسية التي استبقت هذا الخطاب وسوَّغته ومهدَّت لتداعياته.

وإدراك جيلبير الأشقر، لا نقول لأهميّة هذا الكتاب الفكريّة، بل لخطورة مفاعيله السياسيّة هو الذي يجعل كتابه حواراً معلناً حيناً ومضمراً أحياناً مع كتاب هنتنغتون، خاصة وأنَّه يُدرك أنَّ المثقفين العرب لم يقرأوا هذا الكتاب، بالقدر الذي توحي به إشاراتهم المكثّفة إليه على الأقلّ.

وإذا كان هنتنغتون إيديولوجيّ أميركا، الأبرز في الراهن، يحبّ أن يعتقد أنَّ الحرب الطبقية بأسلحة الأفكار والإيديولوجيّات العلمانية الغربية قد انطوى مع انطواء ثورة ١٩١٧ الحمراء، فإنَّ الأشقر يتولّى تفكيك هذا الخطاب عبر معارضته خطاب بن لادن السياسيّ الذي يحدّد لحربه على أميركا أهدافاً سياسية أربعة، لا يمتّ أيّ منها بأيّ صلة للصدام بين الحضارات، ولا ينتقص أيّ منها من حقوق الإنسان والحريّات الديمقراطية التي ادّعى بوش أنّها محرِّك حقد الإسلاميين.

إنَّ بن لادن يقول في خطابه إنَّه صاحب قضيّة تختصر في أربع بنود:

١. معارضة وجود القوات الأميركية على الأرض المقدّسة.

٢. إدانة أميركا لدعمها الأنظمة الاستبداديّة الفاسدة في البلدان العربية والإسلامية ولِنَهْبِها لخيرات بلدانها.

٣. الحظر المجرم على الشعب العراقي.

٤. المذبحة التي يقترفها التحالف الصليبي – اليهودي، بحقّ الشعب الفلسطيني المسلم.

ويبدو بن لادن في محاججته الثانية ضد أميركا ناقداً، لا للديمقراطية الأميركية، بل للأنظمة الاستبدادية التي تدعمها أميركا، عملاً بنصيحة هنتنغتون وجوقة من الخبراء بملف الشرق الأوسط، بينهم فؤاد عجمي، يردّدون في الراهن محاججته القائلة "إنَّ دعم الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي يحمل أعداء أميركا الراديكاليين إلى السلطو".

وبيان الأشقر الماركسي المضاد لبيان هنتنغتون يتّهم أميركا بممارسة ضغوط على السياسة الاقتصادية للسعودية ودول الخليج تمنع توظيف العائدات النفطية في مشاريع إنتاجية، وذلك لمنع تولُّد طبقات اجتماعية تُحدث حراكاً اجتماعياً يُهدّد استقرار أنظمة دول الخليج التي يصفها هنتنغتون بـ"دول القبائل والرايات" (Tribes and Banners).

ولعلّ أهمّ محاججات الأشقر في بيانه الماركسي المضاد لبيان هنتنغتون الرأسماليّ بل للاستشراق ومدارسه التمركزيّة، مفاده أنَّ الإسلام ليس العنقاء العربية التي تحترق وتنبعث في مكانها لتدوِّر التاريخ وتعطّل تقدُّمه، وأنَّ الإسلام السياسي لا يتحكَّم في مستقبل العالم العربي بحكم تأصُّله في بنية الوعي واللاوعي الجمعي العربي، بقدر ما هي استجابة لهجمة استراتيجية أميركية – إسرائيلية عدائية اشتدت منذ منتصف الستينيّات فسحقت الناصرية وفكفكت الأحزاب والحركات القومية والماركسية والعلمانية، وتركت الساحة فارغة ومفتوحة للبديل الإسلامي. ولأنَّ السخط الشعبي يكره الفراغ، مثله مثل الطبيعة، حقّق الإسلاميون "فوزاً بالتزكية" وتحوَّلت الإيديولوجية التي كانت مهزومة ومنبوذة في زمن عبد الناصر إلى إيديولوجيّة تسود الشارع. ولا ينسى الأشقر أن يذكّر بأنّ عبد الناصر هزم الإخوان المسلمين بنهجه الإصلاحي والتحرري، لا القمعي، بينما يحوّل قمع الأنظمة الاستبدادية الفاسدة الدين "أفيون الشعوب" إلى مهيِّج قوي.

ولا يختلف الأشقر مع هنتنغتون في وصف المشهد الإسلامي الذي يزدحم بالألوف من الشبّان المنتمين إلى البورجوازية الصغيرة، ذات الأصول الريفيّة في الغالب، وهم الأكثر قابليّة للأفكار الراديكاليّة، لكنّه يتّهم أميركا "الديمقراطية" بحماية الأنظمة الاستبداديّة وابتزازها ماليّاً وسياسياً في مقابل هذه الحماية غير المشكورة. وبتحويل العائدات النفطيّة إلى أميركا والغرب وتدفيع دول الخليج فواير تسلّح تجعل نفقات السعوديّة العسكريّة تزيد مرّتين ونصف المرّة عن النفقات العسكرية الإسرائيلية. وإذا كان الصدام بين الحضارات يُسفر عن صدام بين الديانات، وهذه الأخيرة تختزل إلى أصوليّات عظيمة، فإنّ الأشقر لا يرى في المشهد الحضاري، الكبير والصغير، إلاّ صداماً بين الهمجيّات كما يقول عنوان كتابه المعاكس لعنوان هنتنغتون. وصدام الهمجيّات هو حرب الإفناء المتبادل بين أصوليّتين تتمنذج إحداهما في السلفي الوهابي بن لادن، وتتمنذج الثانية في الأصولي البروتستانتي المتهوِّد. ج. و. بوش.

ويقدِّم الأشقر كشفاً إحصائياً يثبت همجيّة الحد الأقصى هي التي تمارسها أميركا التي تملك وتستخدم أسلحة الدمار الجماعي بلا هوادة، ما أدّى إلى مقتل ثلاثمائة ألف ياباني بأسلحتها النوويّة عام ١٩٤٥ وثلاثة ملايين فيتنامي وملايين العراقيين المحاصرين منذ حرب الخليج. وحربها على بن لادن والقاعدة هي حرب الخالق على مخلوقه الذي انقلب عليه. إنَّ كسر يد الإسلاميين يطلق يد أميركا، كما يرى الأشقر، في ممارسة شتى أصناف العنف ضد الآخرين دون أن تخشى ردّاً أو عقاباً يقيّد حريّتها في النهب والهيمنة.

ويقرأ صلحب "صدام الهمجيّات" العنف الهمجي الأميركي في ضوء الأفهومة الماركسية القائلة بأنَّ "البربرية تتبع الحضارة كظلّها. فكل حضارة لها شكلها البربريّ الخصوصيّ الذي يميّزها". وإذا كانت همجيّة أعضاء القاعدة تترمَّز في "قطاعات الكرتون" التي تحزّ الأعناق، كما يحدث في الجزائر، فإنّ همجيّة الدولة العظمى المتحضّرة تتمثّل في سلاح جوّي تحصد قذائفه المتنوعة، والتي تزن الواحدة منها سبعة أطنان، البشر عن بُعد.

ولأنّ "إرهاب الضعفاء" لا يتساوى أو يتكافأ مع إرهاب الأقوياء، ولأنَّ مردوده السياسي عكسيّ، فإنَّ نصيحة الأشقر للإسلامويّين هو وقف نهج النحر والانتحار، ووقف حوار النار الذي يغذّي وحشيّة الوحش الأميركي. وصحيح أنَّ إمكانية الجمع بين الثيولوجيا والتكنولوجيا – كما حدث في ١١ سبتمبر – هو في حدود المستطاع، لكنّ الإبادات الجماعية بأسلحة جرثوميّة أو إشعاعية لن يغيّر في المعادلة. وترشيد العمل العسكريّ يخدم برنامجاً سياسياً راشداً يخاطب الوعي الأميركي والأوروبي والإسرائيلي بالأسلوب الفيتنامي المؤثّر هو أمر مرغوب وجدير بالتفكُّر العميق.

ختاماً يمكن القول إنّ "صدام الهمجيّات" يسهم في إعادة النصّ الاجتماعي الماركسي إلى ساحة الحوار والتداول السياسي، ويذكّر بقول أحد كبار فلاسفة العصر: "إنَّ ماركس ليس حيّاً وليس ميتاً.. إنّه شبح.. والشبح ما زال يطوف".